— عبر الحرب البلقانية وخطر المسألة الشرقية —

٥

قد وصلنا الى الخطر فالى متى نغش أنفسنا

كتبت في شهر المحرم فاتحة هذا العام أربع مقالات في هذا الموضوع، ثم شغلت عن اتمام ما بدأت به من أسباب خذلان دولتنا في هذه الحرب حتى حدثت فتنة جمعية الاتحاد والترقي الاخيرة بزعامة (أنور بك) فأسقطت وزارة كامل باشا وقتلت ناظر الحربية (ناظم باشا) في الباب العالي ونصبت وزارة اتحادية جديدة صدرها وناظر حربيتها (محمود شوكت باشا) فتعجل البلقانيون على أثر ذلك بقطع الهدنة، وأعيدت الحرب جذعة

كنت عازماً على أن أبين في سلسلة هذه المقالات جميع الاسباب التي فتحت علينا باب المسألة الشرقية ، بحرب طرابلس الغرب فالحرب البلقانية ، وأن لا أدع من تلك الاسباب الا مسألة واحدة أومئ اليها ولا أبينها وهي عبث جمعية الاتحاد والترقي بالعرش السلطاني ومقام الخلافة ، تكريما لهذا المقام ، واحتراما للمجالس على ذلك العرش

فلما حدثت الثورة الاتحادية وظن الناس — ولم أظن — ان ألمانية ستؤيد تلاميذها الاتحاديين ، والنمسة وايطالية معها ظهير ، وأن دهاقين السياسة المحنكين ، سيمرضون عمران أوربة كله للتدمير، انتصاراً لهؤلاء الاحداث المخربين — ولما رأيت أوربة قابلت هذه الفتنة بهدوءها المعتاد ، ورأيت جماهير المسلمين لم يقدروا ضررها حق التقدير، ولم يفكروا في عاقبة الحرب حق التفكير ، بل ألقوا السمع الى سماسرة التغرير ، وحسبوا ان مايرجون من النصر ، يدفع عن الدولة ما كان يخشى من الخطر ، — لما ذلك كله كما ذكرت ، ورأيت أن التمادي في السكوت أولى فتماديت ، الى أن قرأت في جرائد مساء أمس و(مؤيد) صباح هذا اليوم (السبت ٩ ربيع الاول) هذه البرقية الرسمية الواردة من عاصمة النمسة فكانت هي الباعثة لي على العود الى الكتابة في ذلك الموضوع مكتفياً منه بالبحث في النتيجة والعاقبة، وهذه ترجمتها :

« نشرت الحكومة بلاغاً رسميا أزالت به المخاوف التي تسربت الى الافكار بشأن مهمة (البرنس هوهنلوه) حاجب عاهل النمسة . وقد جاء في البلاغ أن البرنس لقي في روسية مقابلة في منتهى المودة والصداقة ، وأن الاسباب القديمة التي أسفرت عن حصول نزاع في روسية قد زالت ، وأن الشعوب البلقانية صارت الآن مضطرة من

أعضاء الاسرة الاوربية العربية، وستهم حكومة الخسة والجبر اهتماما خاصا بترقية هذه الشعوب واعلاء شأنها »

تفكرت في هذه البرقية مليا ، وقارنت بينها وبين ماورد قبلها من نبأ الوفاق والتواد بين انكلترة وألمانية، وقلت في نفسي ان هذا الاتفاق بين هذه الدول لا يكون في هذا الوقت الا علينا ، ولا بد أن يكونوا بقد صاروا إلباً واحداً على الدولة العثمانية التي كان أساس سياستها الخارجية ، انه لا بقاء لها ، الا بتنازع الدول عليها ، وسواء صح اتفاقهم النهائي علينا الآن ، أم أخروه الى أعوام ، فالنتيجة واحدة وهي انه يجب أن تكون حياتنا ذاتية لنا ، لا بتنازع الدول علينا ، وان نفكر في طريق اتفاق الدول، وكيفية حلهم للمسألة الشرقية ، التي كانت عضلة العقد ، وأم المشاكل ، هل يقسمون ما بقي بأيدينا فيحتل كل منهم حصته احتلالا عسكريا لان الدولة لا تستطيع مقاومتهم فتنتهي بالفتح الحربي ، أم اختاروا لها صورة من صور الفتح السلمي ؟ وقد تفكرت فكان الثاني هو المرجح عندي ، فان هذه الدول العاقلة الرشيدة تأبى الاستيلاء على سائر بلاد الدولة الغالب عليها الخراب والجهل بالاحتلال العسكري لاسباب متعددة

(منها) أن ذلك يقتضي نفقات كثيرة هم في غنى عنها (ومنها) أنه لابد أن يفضي الى ثورات وفتن داخلية في البلاد التي يغلب على أهلها البداوة كالبلاد العربية والكردية وما يجاورها وهم في غنى عن سفك الدم الاوربي المقدس (؟) في أرض الهمجية (في عرفهم) وفي اتفاق المثل على ذلك (ومنها) أنه يترتب على ذلك وقوع العداوات والاحقاد بين المحتلين، وأهالي البلاد المسلمين ، فيكون ذلك مؤخراً للاستفادة من استعمارها (ومنها) ان ما تطمع فيه كل دولة منها وتعده من منطقة نفوذها ليس بينه وبين ما تطمع فيه الاخرى حدود طبيعية يؤمن بها التنازع بين المحتلين مع ما بينهم من المناظرة والمباراة ، بل الشقاق والمعاندة، ولا يتيسر الآن اقامة معاقل تتكافؤ بها القوى فيخشى أن تقع بينهم الحروب لاجل ذلك ، (ومنها) انه لا يوجد في اكثر هذه البلاد تحكنات ولا قلاع ولا حصون للجيش ولا مباني تليق بالاوربيين الذين يتولون الادارة والاعمال ، ولا طرق حديدية لنقل العسكر عند الحاجة ولسهولة المعيشة ، فلهذا يتعذر اتقاء خطر التنازع الذي أشرنا اليه في الوجه الذي قبل هذا ويتعذر تلافي خطر الثورات والفتن الداخلية (ومنها) انه لا يوجد عندهم العدد الكافي من الرجال ، الذين يصلحون لتولي الاعمال ، ويرجى أن تصلح بهم الحال (ومنها) ان ذلك أشد ما يوقظ به استعداد مسلمي الارض كافة ويوجه قلوبهم الى وجوب السعي

للانتقام ممن أزالوا ملكهم ، وهدموا سلطان دينهم ،

تلك هي الاسباب المانعة من الفتح الحربي ، وأما الفتح السلمي وهو ادارة البلاد وحكمها بواسطة أشباح من العثمانيين تحسبهم عامة الامة رجالا منها ، فلا يؤدي الى هذا المحظور

يا سبحان الله ! ان ساسة أوربة ينشرون في رسائلهم وجرائدهم الآراء في كيفية إزالة هذه الدولة كما أزالوا دولة مراكش ودولة ايران ولا نرى أحداً من المسلمين يعتبر أو يفكر ، ولا نقول يسعى أو يعمل ، وما هو رأيهم في كيفية ازالتها ؟:

نشر مدير مجلة العالم الاسلامي الفرنسية رسالة في أوائل العهد بهذه الحرب سماها (المسألة الشرقية) أشار فيها الى ان أمثل الطرق في حل هذه المسألة أن تجعل الدولة العثمانية تحت مراقبة الدول كما تجعل حكومة ألبانية الجديدة . وبين ان من مسهلات ذلك سبق الدولة الى جعل جميع مقومات حياتها في أيدي الاوربيين كمجلس الديون العمومية وشركة احتكار الدخان ، والبنك العثماني ، والسكك الحديدية ، والمستشارين الماليين ، والمعلمين العسكريين ، والمدارس والصناعات والملاحة . فلم يبق الا تحويل نفوذ السفراء في الاستانة الى سلطة شورية مختلطة تكون هي المشرفة على حكومة العاصمة والمديرة لها ، ويجعل وكلاء الدول في الولايات والمتصرفيات مسيطرين على الحكام فيها ، ويكون من أهم عملهم تحديد النفقات العسكرية لان العسكر لا يبقى من الحاجة اليه الا حفظ الامن (كالعسكر المصري) وأما الخلافة فتظل محترمة بصفة كونها امامة دينية فيكون السلطان محصوراً في قصره لا سلطة له ولا قوة

ويقول الكاتب ان هذا يثقل على أصحاب المناصب والاهالي ولكن الدولة في حالة افلاس وسيعلم رجالها انه لا يمكن بقاؤها الا بهذه الطريقة ، وسيعود الاهالي الى الخضوع لسلطة وكلاء الدول كما خضعوا لرجال الانقلاب العثماني أي وهم أخلاط وأوشاب لا يعرف لهم عرق راسخ في الامة كما بينه الكاتب في موضع آخر من رسالته

وقد قرأنا في مؤيد هذا اليوم ترجمة برقية أرسلها صاحب جريدة اقدام التركية من (فينة) الى جريدته بالاستانة يؤيد هذا الرأي . وهي هذه :

« عقد مندوبو البنك الشرقي الالماني والبنك الاهلي والعثماني جلسة في باريس تداولوا فيها بمسألة القرض الذي تطلبه الوزارة العثمانية وقرروا أن يقرضوا الحكومة مايكفيها لدفع رواتب الموظفين والضباط والجنود فقط

« وطلبوا في مقابل ذلك أن يمنح لشركة انكليزية امتياز ري أراضي الجزيرة

« وأن تمنح الى شركات فرنسوية امتيازات انشاء الخطوط الحديدية في الاناضول

«وأن تمنح الى شركات ألمانية امتيازات انشاء خطوط حديدية تتفرع عن الخط الاصلي لسكة حديد بغداد

« وان تصدق الحكومة على تمديد امتياز احتكار الدخان في المملكة العثمانية لشركة الريجي

« واجراء اصلاح في ميزانية نظارة الحربية

« وأن يكون لهذه البنوك حق المراقبة على النفقات العمومية للحكومة

« وأخيراً أن تفوض الى مصلحة الديون العمومية مسئلة عقد القروض » اه

يقرأ المسلمون مثل هذا في الجرائد وتراهم وادعين ساكنين لا يهتمون بها ثم تراهم يهتمون لذكرى أخذ أدرنة أو نصف أدرنة !! ويشيد بعضهم باطراء جمعية الاتحاد التي تجدد بيع ما بقي من هذه الدولة لأوربة بالرهون والامتيازات ! فاهذا الجهل والغرور نعم ان أمتنا الاسلامية قد استحوذ عليها الجهل والغرور معاً ، وصار رؤساؤها وكبراؤها شرارها ، فمن ذا الذي يعلمها ويهديها رشدها ؟ ان السيادة والسلطة أعلى واغلى شيء في نفسها ، وقد كان لها ممالك كثيرة فكانت تزول بالتدريج وهي لا تعقل سبب زوالها ، ولا تعتبر اللاحقة بما حل بالسابقة منها

تألفت الدولة العثمانية من عدة من هذه الممالك فكانت أكبرها وأقواها ، ولكنها منذ صارت القوة تبنى على أسس العلم والنظام ، صارت هي ترجم الفهقرى في كل شيء ، فهي منذ أزال السلطان محمود منها قوة الانكشارية الهمجية الى هذا اليوم لم تقدر ان تؤسس قوة نظامية تحفظ بها ملكها الواسع ، ولو بحيث تجو من طمع الطامع ، واغا اكتفت من القوة المنظمة في الجملة بالقدر الذي يمكن العاصمة البيزنطية ، من تذليل جميع الشعوب العثمانية ، وجباية الضرائب والمكوس منها ، ليتمتع أهل تلك العاصمة ومن حولهم بها ، وكانوا يرون ان ذلك لا يدوم لهم الا ببقاء الامة على جهلها ، فكان مصير ثروة الدولة والامة كلها الى أوربة . ولكن المسلمين راضون لجهلهم بسوء حالهم ، ومقتنعون بأن لهم دولة قوية تحمي حماهم وحرمهم ، فهذا الجهل والغرور هو الذي انتهى بالدولة الى هذا المصير ، ولا يزال المسلمون على غرورهم ، يحنون الدولة على الحرب ، رجاء ان يكون لها الغلب ، فيعود اليهم التلذذ بالطمأنينة على ملك الاسلام ، الذي تمثله لهم الاماني والأوهام ، وان زالت اللذة بعد شهور أو أيام

امانيّ من سعدى عذاب كأنما ... سقتنا بها سعدى على ظمأ بردا

منى إن تكن حقا تكن أحسن المنى ... والا فقد عشنا بها زمنا رغدا

أيها الاخوة المخلصون في الغيرة على الملة والدولة ، إن الرائد لا يكذب أهله ، اعلموا ان الدولة على شفا جرف من الخطر ، وان استيلاء أوربة عليها بالفتح السلمي أقرب غائب ينتظر ، ومن مقدماته الفتنة الثورية التي حدثت في الآستانة وما سيعقبها من الفتن ، ولا منجاة للدولة ، ولا تنبري الفتنة ، بنصر يرجى لأخذ نصف مدينة ادرنة ، ولا أخذ كل تلك المدينة ، ولا بلجنة الدفاع الملية ، ولا بالاعانات والضرائب الحربية ، وقد كنتم مغرورين بجيش عبد الحميد وسررتم بظفره باليونان ، ثم انفق الاتحاديون باسم هذا الجيش خمسين مليونا من الليرات ، ولم يمنع البلقانيين أن يسلخوا من الدولة بضع ولايات تضاهي جميع ممالكهم ، فهل يمنع الدول الكبرى من أخذ الباقي اذا هي اتفقت على ذلك

أيها الاخوة المخلصون للدولة والاسلام ، إني انا النذير العريان ، الذي حمله الاخلاص في النصح ، على تعريض عرضه للسب والشتم ، بل تعريض ماله للسلب ونفسه للقتل ، اعلموا ان الدولة على خطر الزوال ، فيجب على العقلاء منكم ان يفكروا أولا في عاقبة سلطة الاسلام ، وحفظ حرم الله تعالى وحرم رسوله عليه الصلاة والسلام ، فان أدرنة التي خدعتم بتعظيم أمرها ، لا تفي قتيلا في الدفاع عنها ، وانما حفظها بحفظ سياجها ، والبلاد والسواحل المحيطة بها ، ثم أن يفكروا ثانيا بحفظ سائر بلاد الدولة ووقايتها من امتلاك الأجانب لها ، وحفظ استقلال الدولة فيها ،

اعلموا ان جمعية الاتحاد والترقي قد أسست في الآستانة لجنة باسم الدفاع الملي أي الوطني أو الجنسي وانها كتبت الى جميع البلاد العثمانية تطلب الاعانة المالية على ذلك ، وكتبت الى غير البلاد العثمانية في هذا الامر كما كتبت في غيره . وقد كنت أول من اقترح على الدولة الاستعداد للدفاع الوطني العام ، وأكدت وجوبه في العام الماضي بما كتبت في المنار ، ولكن لا على الوجه الذي تدعو اليه الجمعية الآن ، فان فائدة هذا محصورة في الاتحاديين يقون به الدفاع عن أنفسهم ، وتوسيع موارد ثروتهم ، وسيظهر هذا لجميع الناس ، وأما هذه الحرب فستحكم في صلحها أوربة حكمها النافذ الذي لا مرد له

ما كل ما يعلم وما يجب أن يعمل يجوز أن يكتب وينشر ، وانما أقول ان استبقاء السلطة الاسلامية وحفظ الحرمين لا يزال ممكنا ولا ينفذ الاعمال فيجب الآن على جميع أهل الغيرة والبصيرة من مسلمي الارض أن يجمعوا المال لذلك ويحفظوه حفظا الى ان يتبين لهم العمل الذي لا شك فيه بواسطة مؤتمر يعقد لذلك من أهل الغيرة والبصيرة في العالم الاسلامي كالامير عمر باشا طوسون من مصر والنواب وقار الملك من الهند فهذا كل ما يجب الآن والسلام ... (وسنعود الى هذا البحث في الجزء الآتي ان شاء الله تعالى)